İstanbul Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Dergisi, 2010, 22, 155-174

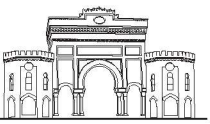

الأسس الدينية في القرآن للتعايش السلمي مع أصحاب الديانات الأخرى

آدم يرندة*

ملخص:

إن قضية التعايش بين الأديان بما تطرحه من مسائل وبما تفرضه من تحدياتٍ عقائدية من أهم القضايا التي تشغل عقول نخبة من العلماء والمفكـــرين في العصر الراهن. والقضية لا تشكل تحديا ولا مشكلة عويصة يصعب حلها بالنسبة للاسلام فإن الاسلام قد حل هذه المشكلة منذ أول عهد ظهر وتولى أمـــور الحيـــاة الاجتماعية على مستوياتها المختلفة ضمن أحكامها وسياساتها المنسامحة نحو الأخر.منذ نشأة أول دولة إسلامية بالمدينة المنورة تحت قيادة الرسول محمد صلى الله عليـــه وسلم، وكانت رعاياها من مختلفي الديانات والنحل؛ المسلمين من المهاجرين والأنصار وأهل الكتاب من اليهود وبقايا مشركي المدينة فقد قدمت دولة الإسلام طوال تاريخها وبالخصوص منذ ذلك الحين ومن أيام الخلافة الراشدة نموذجا رائعا منقطع النظير في التاريخ البشري كله عن التعايش السلمي والتعاون الاجتماعي بين مواطني الدولة الواحدة من انتماءات دينية.

إن مقومات التعايش السلمي في الإسلام على المستويات كلها محليا وإقليميا ودوليا يمكن تلخيصها في: أن الإنسان مخلـــوق كرمـــه الله علـــى ســـائر المخلوقات وجعل له حقوقا مرعية وفي مقدمتها حرية التدين، وأن العدل هو قاعدة السلام والتعايش السلمي بين الناس المختلفي الديانات، وأنه لابد من اجتناب كل ما من شأنه الإساءة لشعائر ومقدسات الأديان بما فيها الوثنية والعمل على غرس الاحترام المتبادل في هذا الشأن، وأن احترام العهود والمواثيق واجب إنساني و التـــزام ضروري ضمانا للأمن القومي والدولي وتحقيقا للتعايش السلمي.

وفي مقالتنا هذه سوف نلقي ضوءا على ملامح عامة لتلك السياسة التي تبناها الإسلام في التعامل مع من لا يدين به من رعايا الدولة الإســـلامية علـــى اختلاف انتماءاتهم وديانتهم. والتي رسم خطوطها العريضة ووضع مبادئها الأساسية القرآن الكريم والسنة

الكلمات المفتاحية: التسامح، التعايش، القرآن،الحوار، الاعتقاد.

* Doç. Dr., İstanbul Üniversitesi İlahiyat Fakültesi.

إن من أهم القضايا التي تشغل فى العصر الراهن عقول نخبة من العلماء والمفكرين وتستقطب اهتمام المشتغلين بالدراسات المستقبلية والمهتمين بمصير التعاطى الحضاري على جميع مستوياته، قضية التعايش بين الأديان، بما تطرحه من مسائل وبما تفرضه من تحدياتٍ عقائدية خالصة كانت أو مشبوهة بأغراض وأهداف غير محسوبة. والقضية لا تشكل تحديا ولا مشكلة عويصة يصعب حلها بالنسبة للاسلام والمسلمين فإن الاسلام قد حل هذه المشكلة منذ أول عهد ظهر وتولى أمور الحياة الاجتماعية على مستوياتها المختلفة ضمن أحكامها وسياساتها السمحة والمتسامحة نحو الأخر.

و فى مقالتنا هذه سوف نلقى ضوءا علي ملامح عامة لتلك السياسة التى تبناها الإسلام في التعامل مع من لا يدين به من رعايا ه على اختلاف انتماءاتهم ودياناتهم. والتي رسم خطوطها العريضة ووضع مبادئها الأساسية القرآن الكريم والسنة النبوية وهى التى قد أتاحت المناخ الملائم والبيئة الطبيعية لتواجد وتعايش الأديان المختلفة والعقائد المتباينة جنبا الى جنب في علاقة سلمية وتضامن اجتماعي منذ إقامة أول دولة إسلامية في المدينة قبل أربعة عشر قرنا الى يومنا الحاضر. وهى يعبر عنها اليوم بالتعايش السلمي حسب ما اصطلح عليه فى علمي السياسة والاجتماع الحديثين.

وبداية، يحسن بنا أن نتعرف علي مفهوم التعايش السلمي بكل معانيه وتداعياته. إن التعايش تعنى لغة: الاشتراك في الحياة على الألفة والمودة[1] وسيرا على المعنى اللغوي تكون الكلمة "السلمي" وصفا مؤكدا لطبيعة التعايش وهناك مفهوم أخر له علاقة وثيقة بالتعايش السلمي وهو حوار الأديان أو بالأحرى، التسامح الديني الذي ظل ولا يزال تداوله على الألسنة أمرا شائعا.

وفي السياسة الدولية، يعني مصطلح التعايش السلمي قيام تعاون بين دول العالم على أساس من التفاهم وتبادل المصالح الاقتصادية والتجارية .وقد ظهر هذا المصطلح بعد الحرب العالمية الثانية وانقسام العالم إلى معسكرين راحا يتناحران على أساس أيديلوجي. ومما ساعد على إبراز الدعوة إلى سياسة التعايش السلمي الفزع والخوف المتولدان من ضرورة العيش تحت الاسلحة الذّرية بعد أن أصبحت القنبلة النووية، وهي أداة الدمار الشامل، مشاعة بين دول المعسكرين .وبعد قيام الجبهة الثالثة وهي مجموعة دول عدم الانحياز، أكدت الرغبةَ في أن يكون التعايش السلمي هو السبيل إلى تنسيق العلاقات الدولية في العالم وإلى نبذ الحرب الباردة والتلويح باستخدام معدات الدمار الشامل.[2]

إن أول من أطلق شعار التعايش السلمي (Peaciful Coexistence) هو نيكيتا خروتشوف (Nikita Kruşçev)، وكان لا يعني به تراجع بلده الاتحاد السوفياتي عن تحقيق أهدافه المعلنة بقدرما كان يعني به محاولته تحقيق تلك الأهداف بطريقة تنسجم مع مقتضيات التغيرات التي طرأت على المسرح الدولي، كوجود ما يعرف بتوازن الرعب، كما أن الغرب يؤثِر أن يكون المقصود بالتعايش السلمي هو ما يطلق عليه: "عِش ودع غيرك يعِشْ أيضا"[3]

إذا اعتمدنا التعريف الأول، ونقلناه إلى مجال التعاون بين الأديان، أمكن لنا أن نقول إن التعايش بين الأديان اذا قام على هذه الأسس، كان ضرورّة من ضرورات الحياة على هذه الأرض، يتفق وما توحيه القاعدة الاسلامية المقررة في المجلة العثمانية " درء المفاسد أولى من جلب المنافع "[4]، ويلبى نداء الفطرة الإنسانية السوية للعيش في أمن وسلام وطمأنينة حتى يتفرغ الإنسان في سكينة لتعمير الأرض بالمعنى الحضاري والإنساني الواسع لهذا التعمير. فالتعايش بهذا الفهم الموضوعي يعنى الاتفاق بين الاطراف على تنظيم

---

1 ابراهيم مصطفى (وأخ.) المعجم الوسيط، دار الدعوة، مادة "عيش".

2 أحمد عطية الله، القاموس السياسي، القاهرة 1968، الطبعة الثالثة، ص. 310.

3 "الموسوعة السياسية "، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1974 ص. 108.

4 Dr: Osman Öztürk, *Osmanlı Hukuk Tarihinde Mecelle*, md. 30, İstanbul 1973.

وسائل العيش فيما بينهم وفق قاعدة محددة تقوم على التوافق حول مصالح وأهداف أو ضرورات مشتركة، مما يؤدى المرء بالضرورة الى أن يدخل في عملية تبادليةٍ مع الأخر.[5]

وعلى هذا فإن التعايش السلمي كاصطلاح اجتماعي هو البديل عن العلاقة العدائية بين أتباع الديانات والعقائد والملل المختلفة، وبالخصوص المقيمين منهم في دولة واحدة. وضمان هذا هو اعتراف بحق الأخر في العبادة والسلوك على حسب دينه المختلف عن دين الأخر دون عدوانية نحوه ودون تدخل في عباداته طالما أن عباداته هذه لا تؤدى إلى عدوانية ضد الأخر. واذا نقلنا هذا المفهوم الى ساحة العلاقة بين المسلم والمسيحي على سبيل المثال، يمكننا ان نقول إن المطلوب من المسلم هو الاعتراف فقط بحق المسيحي في أن يمارس إيمانه و دينه وشعائره دون عدوانية منه نحوه بما في ذلك العدوانية المتمثلة في الازدراء بدينه وبكتابه وتشويه معتقداته وإهانة أنبيائه ومقدساته. وليس المطلوب منه كمسلم قبول تعاليم المسيحية أو الاشتراك عمليا في الطقوس المسيحية كما يؤمن بها ويمارسها المسيحيون اليوم. والتعايش السلمي ضرورة إنسانية ينشدها الدين الصحيح ويمليها العقل السليم ويضمنه التسامح الديني بالمعنى المتقدم.

والقرآن لا يفرض أمر الإيمان على الإجبار والقسر وإنما يبنيه على التمكن والاختيار[6]. ومن هنا يقبل اختلاف الأمم والعقائد ويدعو الجميع إلى السلم تحقيقا للتعايش السلمي والحوار الصحيح كما يُظهر حساسية شديدة في تأكيده على الاحترام المتبادل، حيث قال الله تعالى: "لا إكراه في الدين"[7]، " فذكر إنما أنت مذكر* لست عليهم بمسيطر"[8]، "أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين"[9]. وكذلك جاء في دستور المدينة الذي وضعه النبي محمد صلى الله عليه وسلم والذي لا شك انه أعظم ميثاق للتعايش السلمي بين مواطني الدولة الإسلامية من مختلفي الديانات والانتماءات: "إن اليهود بني عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم و للمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم".[10] وهذه النصوص المنقولة عن المصادر الأولية للدين الإسلامي لا يغادرها العقل ولا المنطق السليم وتفرضها الظروف الحياتية المشتركة والوطن الواحد والجغرافية المحددة والامكانيات المحدودة.

ومن هنا فإن موضوع التعايش السلمي أو التسامح الديني بين المسلمين وأتباع الأديان الأخرى عبر تاريخ العلاقة بينهم منذ خمسة عشر قرناً إلى اليوم، قضية تعد من المسلّمات الاعتقادية والتشريعية والأخلاقية فى الاسلام، حيث قد وضع القرآن الكريم أسسه ومبادئه وقام نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم بتطبيقه حياة واقعية وأمثلة عملية، ثم نهج أصحابه من بعده صلى الله عليه وسلم المنهج نفسه، وانطلقت مسيرة التعايش بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى من اليهود والنصارى والمجوس وغيرها عبر القرون المطاولة، متألقة تسير من تطبيق عملي لها إلى تطبيق عملي خلا بعض الفترات الزمنية التي كانت علاقة التعايش فيها ترتكس نحو سلبية مظلمة أو عصبية بغيضة أو طائفية مقيتة يسببها الجهل بحقيقة الدين السماوي أو التأويلات المنحرفة أو الأهواء والمصالح والأنانيات لبعض الحكام ورجال الدين أو تدخل الغرباء الذين يسعون لبث بذور الطائفية تمهيداً لاستعمار واستغلال بلاد المسلمين وغيرهم على السواء.[11]

وقد ركز القرآن علي الطريقة السلمية التي تعتمد اللين والتسامح كأساس للحوار انطلاقا من القاعدة الإسلامية التي تعتبر موضوع الحوار بمختلف مستوياته ومجالاته وسيلة مؤكدة للوصول إلى الهدف وهو الإيمان بالحق والوقوف معه. وقد أطلق عليها قفص "التي هي أحسن" إشارة إلى النتائج العملية التي تجتنيها الرسالة الإسلامية في التحليل النهائي وهو أن تحول أعداءها إلى أصدقاء[12].

---

[5] د. عبد العزيز بن عثمان التويجري، "فعالية قيم الحبّ والتسامح والتعايشية من خلال المفاهيم القرآنية"، مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي، المؤتمر العام الرابع عشر 22-25 شعبان 1428 هـ / 4-7 ايلول 2007، عمان، ص. 8-9.

[6] أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف، (تحقيق: عبد الرزاق المهدي)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 331/1.

[7] البقرة: 256/2.

[8] الغاشية: 88/21-22.

[9] يونس: 99/10.

[10] ابن هشام عبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية (تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد)، بيروت: دار الجيل 1411، 34/3.

[11] و لدور الأسباب التاريخية والاجتماعية والتصرفات الفردية لبعض الحكام في نشوء المعاملات السلبية ضد أصحاب الديانات الأخرى خلال بعض فترات زمنية في التاريخ الإسلامي انظر: بسام داود عجك، الحوار الإسلامي المسيحي، دار ابن فتيبة للطباعة والنشر والتوزيع 1998/1418، ص. 56-65.

[12] فصلت 34/41؛ سورة النحل 125/16؛ سورة العنكبوت 46/29

والحوار بمعنى التفاهم المتبادل والعمل المشترك لتحقيق وتعزيز التعايش السلمي والعدالة الاجتماعية والقيم الأخلاقية والحرية[13] هو قضية جوهرية في الدعوة الإسلامية. وعلى العكس من الموقف المسيحى على سبيل المثال تجاه غيره من الأديان[14]، لم يشكل الحوار القائم على الاحترام المتبادل والتعايش السلمي مع الأخر المختلف دينيا، مشكلة مستعصية يصعب التعامل معها ويستحيل حلها فى أى فترة من فترات السيادة الاسلامية في الماضى والحاضر. فالنبي صلى الله عليه وسلم قد حاور المشركين، وحاور اليهود والنصارى من أهل الكتاب وجلس معهم الجلسات الطويلة، يناقشهم فى عقائدهم وسلوكياتهم ويدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة. والدين الإسلامي اليوم –لاشك- سيكون الطرف الأكثر استفادة من حوار الأديان والعقائد كما كان الحال عبر تاريخ العلاقات الدينية[15]، فيمكن للدعاة الحكماء من المسلمين أن يوصلوا الدعوة الإسلامية إلى كل الشعوب والطوائف في العالم من خلال الحوار ويغيروا التصور الخاطئ للإسلام الذى رسمها رجال الدين والأدب والفكر فى العالم المسيحى خلال العصور الوسطى والذى لاتزال آثاره السلبية عالقة بأذهان معظم الشعوب الأوربية[16] وكذلك يمكنهم أن يزيلوا الصورة المشوهة التي يسعى الإعلام العالمي على نقشها في نفوس أفراد المجتمعات الحديثة غربا وشرقا عن الاسلام، كما أنه يمكن من خلال الحوار تحقيق التفاهم والوحدة الوطنية في الدول الاسلامية التي يعيش فيها المسلمون وغيرهم من أتباع الديانات المختلفة سوية، بحيث لا يستطيع أصحاب المطامع والاغراض أن يبثوا الفتن والعداوة بينهم فيستمرون في التعايش السلمي والتضامن الاجتماعي في المستقبل كما كان الحال في السابق.[17] والجدال أو الحوار بالتي هي أحسن، يتمثل في أفضل الأساليب وأحسنها في إقناع الخصم بالفكرة التي يدور حولها الحوار والنقاش.

وقد نشأ أول دولة إسلامية بالمدينة المنورة تحت قيادة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وكانت رعاياها من مختلفى الديانات والنحل؛ المسلمين من المهاجرين والأنصار وأهل الكتاب من اليهود وبقايا مشركي المدينة. ورغم هذا فقد قدمت دولة الإسلام طوال تاريخها وبالخصوص منذ ذلك الحين ومن أيام الخلافة الراشدة نموذجا رائعا منقطع النظير في التاريخ البشري كله عن التعايش السلمي والتعاون الاجتماعي بين مواطني الدولة الواحدة من انتماءات دينية وقومية وطوائفية وقبائلية وعشائرية مختلفة. وقد اعترف بهذا المؤرخ المستشرق سير توماس أرنولد (Thomas Arnold 1795-1842) حين قال: "ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملا حاسما في تحويل الناس إلى الإسلام، فمحمد نفسه قد عقد حلفا مع بعض القبائل المسيحية وأخذ على

---

13 الأب د. بيير مصري، "نظرة المسيحية الى الأخر المختلف دينيا وجهة نظر كاثوليكية شرقية" الأديان: نظرات متبادلة، بيروت 2007، ص. 69.

14 على الأسف لم تكن كنيسة القرنين الرابع والخامس على سبيل المثال، متسامحة ومتسامحة مع الآخر المختلف. وهناك توجد ثلاثة أحداث تاريخية تشكل صفحة سوداء في تاريخ المسيحية في موضوع نظرتها الى الأخر المختلف دينا ومذهبا، وهى الحملات الصليبية، ومحاكم التفتيش، وموقف المصلحين من الاصلاحات الأخرى. وللمزيد انظر: القس د. عيسى دياب، نظرة المسيحية إلى الإنسان عامة وإلى الأخر المختلف دينيا خاصة من وجهة نظر إنجيلية،" الأديان نظرات متبادلة، بيروت 2007، ص. 95-الخ.
ومن المؤكد تاريخيا أن التسامح الاسلامي تجاه غير المسلمين إبان عصور القوة الاسلامية لم يقابل بالمثل من غير المسلمين إبان ضعف شأن المسلمين في الماضي والحاضر. وحتى بعد انحسار المسيحية عن سدنة الحكم فى الدول الأوروبية وانفتاح الفاتكان الايجابي منذ اوائل الستينات من القرن السابق للحوار مع الديانات الأخرى نرى أن فكرة الحوار الاسلامي المسيحي لم يلق قبولا منشودا من بين أساقف بعض بلدان آسيا و أفريقيا، التي يشكل فيها المسلمون أقلية.(انظر: الاسلام و المسيحية لأليكسي جورافسكي (ترجمة: د. خلف محمد الجراد)، الكويت 1996، ص. 151.) وكذلك اليهودية في شكله المنحرف والمتغير الذي أخذته في تطورها التارخي ليس أقل تشددا وعداوة من المسيحية في علاقته وتعامله مع الأخر المختلف، نصا وتطبيقا. وللتفاصيل فى الموضوع انظر: القس د. عيسى دياب، "نظرة اليهودية إلى الإنسان عامة وإلى الأخر المختلف دينيا خاصة"، الأديان: نظرات متبادلة، بيروت 2007، ص. 121-الخ.

15 ونلاحظ أن الإسلام كان أكثر استفادة من التعايش السلمي والحوار الإيجابي مع الديانات الأخرى أثناء الحكم الأموي الإسلامي في الأندلس الى درجة أن ألفار أسقف قرطبة في عام 854م. اشتكى من كون المسيحين الشباب يأخذون من الآداب العربية (الاسلامية) أكثر مما يأخذون من اللاتنية. وللتأثير الايجابي للمناخ المعرفي والثقافي والتعايش السلمي فى إسبانيا خلال الحكم الإسلامي في التقارب التفاهمي والعلاقة الايجابية بين الأوربيين والمسلمين انظر: أليكسي جورافسكي الاسلام و المسيحية، ص. 45 -الخ.

16 للاطلاع على التصور المشوه والمغرض عن الإسلام في الأوروبة القرون وسطوية انظر: أليكسي جورافسكي الاسلام و المسيحية، ص. 65-الخ.

17 لا يمكن إنكار دور الاسلام المتسامح مع الديانات الأخرى، لا سيما السماوية الأصل منها، في الحفاظ على العقائد والتقاليد المسيحية ذات النزعات غير الأرثوذكسية في الشرق الأدنى والإفريقيا واستمرارها وعيشها الى اليوم. وللتفاصيل انظر: أليكسي جورافسكي، الاسلام والمسيحية ، ص. 175-الخ.

عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم في أمن وطمأنينة"[18].

وقد كتب رئيس الأحبار (خاخام باشى) بأديرنة، إسحاق صرفاطي (İshak Sarfati) رسالة إلى الطوائف اليهودية في الدول الأوروبية الذين كانوا يعانون هناك من ظروف صعبة جدا بسبب الضغوط والمضايقات الممارسة ضدهم من قبل السلطات الدينية والإدارية الحاكمة في الأوروبا حينذاك، يدعوهم فيها إلى الهجرة والعيش في الأراضي التي قبلت سيادة الهلال، يعنى الأراضي التي يسودها الحكم العثماني. وهذه الرسالة –لا شك- تشكل وثيقة تاريخية، وهى لا تكتفي بالإشارة إلى الظروف المعيشية الايجابية التي كانت تتمتع بها العناصر المختلفة الديانات في إدارة الدولة العثمانية الإسلامية بل تؤكدها تاكيدا وتعلن عنها صراحة[19].

ويذكر أن السلطان سليم ياووز (Yavuz Sultan Selim) رأى أن العناصر غير المسلمة قد كثر عددهم في مملكته بشكل يبث قلقا وأقضوا مضاجع الدولة العثمانية بما أشاعوه من فتن ونسجوه من مؤامرات فقرر أن يجبرهم على الإسلام أو يخرجهم من مملكته قسرا فعارض شيخ الإسلام حينذاك زنبيلى على أفندى (Zenbilli Ali Efendi, ö. 1526) معارضة شديدة وقال بلهجة قوية قاطعة: "لا أكتفي بعزله فقط بل وقد أفتى بخلعه وحتى بقتله أيضا" فرجع السلطان عن عزمه امتثالا للإرادة الشرعية!!. ومن هنا تتساءل مجلة نيويورك تايمس (New York Times) بأي نظام استطاعت الدولة العثمانية أن تقيم التوازن والعدالة في الجغرافيا البلقانية طوال 456 سنة بينما لم تتمكن الولايات المتحدة من إقامة نفس التوازن والعدالة بأسلحتها النووية وبتعبئة القوى الدولية قاطبة.[20]

ولعل الاجابة على هذا التساؤل كامنة في سطور العهد الذي كتبه السلطان محمد الفاتح وأرسله إلى رؤساء الكنائس والمعابد في أرجاء مملكته، لا سيما الواقعة منها في منطقة البلقان. وقد ضمن السلطان في عهده المشار اليه الحماية لجميع أتباع الأديان المختلفة في النفس والمال والدين والعرض والشرف كما ضمن أيضا ممارسة الشعائر الدينية في أمن وطمأنينة وبدون أي تدخل أو إزعاج من قبل احد من رعاياه. وهذا العهد -لا شك- يشكل وثيقة واقعية لا خيالية لحقوق الإنسان، سجلها التاريخ في عصر كانت فيه تسيطرة على العلاقات الاجتماعية والدينية بين الأفراد والجماعات عوامل الحقد والعداوة والعنصرية الدينية والخصومة العرقية.

يمكن إرجاع المقومات القرآنية كلها التي تجعل التعايش السلمي بين أتباع الأديان المختلفة حياة واقعية والتي تضمن استمرارية هذا التعايش إلى شيء واحد، ألا وهو *وجهة النظر القرآنية إلي الخليقة البشرية*، حيث رفع القرآن الكريم قدر ومكانة الخليقة البشرية إلي مستوي يتناسب مع الدور الذي أراد منه أن يلعبه والواجب الذي فرضه عليه والمسؤولية التي أناطه بها في الحياة الفردية والاجتماعية. ويمكننا أن نلتمس مكانة وقدر الإنسان في نظر القرآن في المقومات التالية:

أ - وحدة الجنس البشرى

قد أعلن القرآن الكريم بوحدة الجنس البشرى أو بالأحرى، وحدة الأصل الإنساني وبيّن بعبارة واضحة أن الناس متساوون من حيث أصلهم و بشريتهم. قال الله تعالى **"يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحامَ إن الله كان عليكم رقيبا"**[21] والناس جميعا في نظر القرآن هم أبناء العائلة الإنسانية الواحدة وكلهم له الحق في العيش و الكرامة دون استثناء أو تمييز. وما اختلاف البشرية في ألوانها و أجناسها و لغاتها إلا

---

18 انظر فى كتابه الدعوة إلى الإسلام، ص. 65.

19 Yusuf Altıntaş, "Türk-Osmanlı Coğrafyasında Musevî Varlığı", *OSMANLI'DA HOŞGÖRÜ*, İstanbul 2000, s. 32

20 Ahmet Akgündüz, "Osmanlı Devleti'nde Barış ve Hoşgörünün Hukukî Temelleri", *OSMANLI'DA HOŞGÖRÜ*, Birlikte Yaşama Sanatı, (Sempozyum Tebliğleri) İstanbul 2000, s. 66-67

21 النساء: 1/4.

آية من الآيات الدالة على عظيم قدرة الخالق تعالي: "**ومن آياته خلق السموات و الأرض واختلاف ألسنتكم و ألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين**".[22]

والاختلاف فى الجنس واللون واللغة لا يجوز أن يكون سببا في التنافر والعداوة بل بالعكس يجب أن يكون سببا للتعارف والتلاقي على الخير والمصلحة المشتركة، علي ما جاء في قوله الله تعالى: "**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم**".[23] وعبارة "لتعارفوا" في الآية تحمل معنيين : الأول أن يعرف بعضكم بعضًا، والثاني أن تتعاملوا فيما بينكم بالمعروف[24] .ومفهوم التعارف اذن ذو سعة، يمكن أن يشمل كلّ المعاني التي تدلّ على التعاون والتساكن والتعايش، ويمكن أيضًا أن يستوعب التعارف قيم الحوار، والجدل بالتي هي أحسن، والاحترام المتبادل.

وقال النبي محمد صلى الله عليه وسلم أيضا في خطبة أوردها قبل وفاته بأشهر في حجة الوداع، وهي بمثابة الوثيقة الإسلامية الكبرى لحقوق الإنسان: "**يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى**".[25]

يتبين من هذه النصوص الدينية أن معيار التفاضل والتفاخر الذي وضعه القرآن الكريم إنما هو ما يقدمه الإنسان من خير ونفع للإنسانية كلها مع تمام الإيمان واليقين بالله تعالى، وهو الذي يعبر عنه فى القرآن بالتقوى والعمل الصالح. ولم ينظر القران إلى الآخر الذي لم ينتسب إلى مدرسة الإسلام على أنه ليس بشرا وإنما نظر إليه نظرة الطبيب إلى المريض[26].

ب – إن الإنسان مخلوق مكرم ومحترم

إن الإنسان بحد ذاته وبغض النظر عن أية صفة تلحقه، محترم و مكرم في نظر القرآن. وهذا التكريم منحة ربانية ليس لأي إنسان أو جهة إلغاؤه أو الانتقاص من قدره أو التنازل عنه. ولقد جاء في القرآن الكريم:"**ولقد كرمنا بني أدم... و فضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**".[27] وتعقيبا على مدلول الآية الكريمة كتب الشيخ محمد الغزالي كلاما رائعا:

"إن قدر الإنسان في نظر الإسلام رفيع، والمكانة المنشودة له تجعله سيدا في الأرض وفي السماء. ذلك أنه يحمل بين جنبيه نفخة من روح الله وقبسا من نوره الأقدس، وهذا النسب السماوي هو الذي رشح الإنسان ليكون خليفة عن الله في أرضه وهو الذي جعل الملائكة بل صنوف المخلوقات الأخرى تعترف بتفوقه"[28].

ولا يزال الإنسان موضع إكرام في الإسلام حتى ولو كان جثمانا محمولا على العواتق. و قد قام نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم يوما من مجلسه تحية واحتراما لجثمان ميت مرت جنازته أمامه، وقام معه المسلمون، فقيل له من باب التنبيه والتذكير: إنها جنازة يهودي، فقال: "**أليست نفساً**"[29]

وكما أمر الإسلام بتكريم الإنسان على الخط الايجابي، كذلك نهى على الخط السلبي عن إيذائه بأية صورة من صور الإيذاء. فعندما قال أبو ذر الغفاري الصحابي الزاهد لبلال الحبشي: يا ابن السوداء! غضب النبي صلى الله عليه وسلم فقال لأبى ذر مؤنبا له: "إنك امرؤ فيك الجاهلية".[30] و من هنا كان النبي صلى الله

---

22 الروم: 22/30.
23 الحجرات: 13/49.
24 حسان حتحوت، رسالة إلى العقل العربي المسلم، ، دار المعارف، القاهرة 1998، ص. 153 .
25 رواه أحمد في مسنده 411/5.
26 انظر مادة "المرض" و "الشفاء" فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم تأليف: محمد فؤاد عبد الباقي.
27 الإسراء: 70/17.
28 محمد الغزالي، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام و إعلان الأمم المتحدة، القاهرة الطبعة الثالثة 1984، ص. 11.
29 البخاري، كتاب الجنائز، 50. وانتهى الإمام الشوكاني من ظاهر الأحاديث في الباب إلى الحكم بأن القيام لكل الجنائز مشروع ومستحب. انظر نيل الأوطار، بيروت 1973، 122/4.
30 البخاري، "كتاب الإيمان"، 22.

عليه وسلم يقول: "**إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا**".[31] كل ذلك دون تفرقة بين لون أو جنس أو ملة. و من هنا كانت الحصانة لكل البشر بغض النظر عن ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم وديانتهم.

ج – الإنسان خليفة في الأرض.

القرآن وهو الرسالة الإلهية المعبّرة عن إرادة الله هو الذي أطلق على الإنسان اسم الخليفة، وهو الذي وضعه في موضع الخلافة. فماذا تعني هذه الخلافة في نظر القرآن؟ وماذا ينطوي تحت هذه المسؤوليّة من مهمّات وتبعات. إذا عرفنا أنّ الخلافة هي : النيابة عن الغير من أجل تنفيذ إرادته، أو القيام بدوره الذي يؤدّيه هو أصالة. وإذا عرفنا أنّ الخليفة هو: النائب والقائم بالدور الموكول إليه نيابة عن غيره[32] استطعنا أن نفهم معنى خلافة الإنسان في هذه الأرض وماذا تعني هذه الخلافة. وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول إنّ الإنسان هو الكائن المستخلف في هذه الأرض تشريفاً له[33] وتعظيماً لقدره، ليضطلع بتنفيذ إرادة الله وتحقيق مشيئته ـ مشيئة الحق والعدل والهداية والإصلاح على سطح هذا الكوكب[34].

وقد جاء بيان الاستخلاف هذا بالإعلام الإلهي الموجّه إلى الملائكة المقدسين كما حكاه القرآن."**وإذْ قال ربّك للملائكة إنيّ جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويسفكُ الدّماء ونحنُ نسبحُ بحمدك ونقدّسُ لك قال إنيّ أعلمُ ما لا تعلمُون**"[35]. وبضم هذا النص القرآني إلى أهم النصوص القرآنية التي تحدّثت عن هذا المفهوم، نستطيع أن نشكل أبعاد صورة النشاط الإنساني داخل إطار الخلافة ونشخّص دلالاتها ومضامينها كما رسمها القرآن وصوّر صيغتها: "**يا داوُد إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكُم بين النّاس بالحقّ ولا تّتبع الهوى فيُضلّك عن سبيل الله**"[36]، "**وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم**"[37]، "**هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفرهُ**"[38]. فهذه النصوص توحي وتصرّح بمعنى خلافة الإنسان وأبعاد الاستخلاف في هذه الأرض فهي:

1- تسبيح الذات الإلهي الخالق الأزلي وتقديسه.

2- حفظ الحياة والإصلاح في الأرض وملؤها بالعمل والعمران وشتى مظاهر المدنية والحضارة.

وإذا شئنا أن ندرس بوعي وعمق معنى التقديس والتسبيح والإصلاح وحفظ الحياة وجدنا أن هذه المبادئ هي رسالة الإنسان بأكملها في هذه الحياة، وهي مسؤوليّة على هذه الأرض، وهي منهج سعادته، ومحتوى عهده وميثاقه مع الله، فالتسبيح هو التنزيه، وهو التوحيد ونفي الشّرك، وهو الانفصال عن الكلّ ما عدا الله.

3- قيام الحكم والسياسة على أساس مبادئ الحقّ والعدل.

و من ضرورات الاستخلاف أن يتعامل الإنسان مع أخيه الإنسان بالطريقة التي يحبُّ أن يتعامل معه خالقه. وما أروع تشخيص الإمام علي رضى الله عنه لهذا المفهوم حينما أوصى مالك بن الأشتر حين ولاه مصر بالعمل بهذا المبدأ، فقال: فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه[39]. ومن أجل ذلك كان الإنسان هو الخليفة الذي يجب عليه أن يعمل لما استخلف له،فينفذ إرادة المستخلف،ويعمل طبقاً لقانون الاستخلاف وأهداف الخلافة، فليس من حقّه الاستغلال والاستئثار بالثروة والمال ولا الاستبداد والظلم والتسلّط في الحكم والسياسة ولا الإفساد وتخريب العلاقات الاجتماعية وتدمير نظام الحياة أو الانحراف في الفهم والاعتقاد والتعبّد.

---

31 مسلم، "كتاب البر"، 117.

32 أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، الكليات (تحقيق: عدنان درويش-محمد المصري)، بيروت 1998/1419، ص. 427.

33 الراغب الاصفهاني، المفردات في غريب القرآن (تحقيق: محمد سيد كيلاني)، مادة: "الخلافة".

34 محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت 1405، 200/1؛ فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب ، بيروت 2000/1421، 152/2.

35 البقرة: 30/2.

36 ص: 26/38.

37 الأنعام: 165/5.

38 الفاطر: 39/35.

39 أحمد بن علي بن احمد الفزاري القلقشندى ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (تحقيق: عبد القادر زكار)، دمشق 1981، 11/10.

د- خلق الإنسان لعبودية الله تعالى عن الاقتناع النفسي والاختيار العقلي بحكمة الابتلاء والاختبار

من الحقائق الثابتة التي لا يختلف عليها اثنان من الناحية الدينية أن غاية الإنسان في هذه الحياة هي تحقيق معنى العبودية لله سبحانه وتعالى في ذاته ومجتمعه بالمعنى الشامل الذي يعني أول ما يعني القيام بأعباء الاستخلاف في الأرض بأبعاده المتعددة ونشاطاته المتنوعة وتعمير الكون وفقاً لمنهج الله، الذي أوقف البشرية عليه الرسل، وكان مسلكهم وسيرتهم أنموذجاً عملياً للسائرين على الطريق المستقيم وتعاملهم مع السنن التي تحكم الحياة والأحياء هو المنهج المنوط بالمؤمن سلوكه في عمليات الهداية والتغيير للوصول بالبشرية النائهة إلى تحقيق معنى العبودية في حياتها التي خلق الإنسان من أجلها، أداء لأمانة المسؤولية التي حملها الإنسان بعد أن أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها[40]. قال تعالى: **"وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"[41]، "لكلّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات"[42]، "هو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم"[43]، "الذي خلق الموت و الحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا"**.[44]

و يتبين من هذه النصوص وغيرها أن فلسفة القرآن في الحياة والهدف الأساسي لخلق الإنسان هى عبادة الله وحده، وهى غاية خلق الانسان، وهدف وجوده. و الناس أحرار في علاقات بعضهم ببعض، وهم عبيد إلى الله وحده، ومتساوون في هذه العبودية التي تستلزم نفي جميع ألوان العبودية لغيره تعالى. وعلى هذا فإنّ الإنسان هو أساس التغيير في التصور الإسلامي، والتزام طريق النبوة في الحركة هو منهجه، والوصول إلى تحقيق العبودية والفوز برضا الله تعالى هو هدفه. وهذا لا بد له من نية وهي اقتناع العقل وعزم القلب وانبعاث الهمة والعمل الذي هو الاستجابة السلوكية والتعبير الإيجابي عن القناعة العقدية والنفسية والفكرية، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى"**.[45]

خلق الله تعالى الناس وهم أحرار في إرادتهم واختيارهم؛ في الاعتقاد به والالتزام برسالته، وجعلهم متساويين في حرية الإرادة والاختيار، فالله تعالى منحهم العقول والغرائز ليتوصلوا من خلال الآيات والبينات إلى اتخاذ المنهج الإلهي في الحياة؛ في عقولهم ونفوسهم ومواقفهم. وبعد إلقاء الحجّة عليهم ترك سبحانه و تعالي لهم حرية اختيار ما يرونه بلا إكراه ، حيث قال : **"إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا"[46]، "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ"[47]**. والناس متساوون في هدايتهم لنجد الخير ونجد الشر كما أنهم أحرار في اختيار الهدى أو الضلال.

والناس متساوون في إصلاح نفوسهم وعدم إصلاحها بعد أن ألْهَمَ الله تعالى كل نفس عناصر الفجور والتقوى ورسم لها طريق الصلاح والطلاح، كما قال تعالي: **"وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا"[48]**.

وتحقيقا للتعايش السلمي بين الناس المختلفي الانتماء لغة وملة وقومية وتوفيرا للبيئة المناسبة للإنسان الحر حتى يؤدى الرسالة والأمانة التي من أجلها خلق وهى العبادة لله تعالى وحده، ويقوم بالمسؤولية التي تحملها في مناخ حرية كاملة وضع القران مبادئ وأسسا تتميز بصفة العالمية. وهي يمكن إجمالها كالتالي:

---

40 الأحزاب: 72/33.
41 الذاريات: 56/60.
42 المائدة: 48/4.
43 الأنعام: 165/5.
44 الملك: 2/67.
45 البخاري، "كتاب بدئ الوحي"، 1.
46 الإنسان: 2/76-3.
47 يونس: 108/10.
48 البلد: 10/90. وتفاصيل ونقاش أقوال المفسرين في تأويل الآيات المذكورة أعلاه انظر: فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، 210/30-211؛ 127/31.

I. الحرية

الحرية أغلى شيء في حياة الإنسان؛ بها يملك الإنسان شخصيته ويثبت كيانه. وهي أكبر مظاهر الكرامة الإنسانية و الطريق إلى الإيمان الصحيح والمسؤولية. فالحرية بمعناها الشامل تشتمل جميع الحريات والحقوق الأساسية للإنسان، بما فيها حرية الاعتقاد وحق ممارسة الشعائر وصون أماكن العبادة وحرية التفكير والتعليم وحرية العمل والكسب. فلنتناول هذه الحريات بشيء من التفصيل، كلا منها على حدة.

أ- الحرية الدينية والاعتقادية

إن الاختلاف في الدين أمر واقع لا ينكره الإسلام من حيث هو واقع. وهذا الاختلاف ليس من شأنه أن يمنع العلاقة السلمية والتعاونية بين معتنقي ديانات مختلفة. والإسلام إذ يعرض تعاليمه أمام الناس، ويرغبهم في اعتناقها، في الوقت نفسه يتركهم أحرارا في أن يؤمنوا به أو لا يؤمنوا، ويختاروا سائر الملل والنحل أو لا يدين بأي دين إطلاقا. و كما أن الإسلام لا يقبل إكراه الناس على الدخول فيه فهو كذلك ضد أي إكراه على عقيدة أو دين أخر.

وأساس هذه الحرية في الإسلام قائم على نصوص ثابتة في القرآن وتطبيقات واقعية في السنة، وأحداث افتخارية في تاريخ الحكم الإسلامي. وقد جاء في التنزيل الحكيم: **"لكم دينكم ولي دين"**[49]، **"لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي"**[50] ، **"ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين"**[51].

لما هاجر النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة، كان فيها أتباعه من المسلمين، إضافة إلى بعض المشركين العرب، وقبائل يهودية، فأقام حلفاً مبنيّاً على التكافؤ والعدالة بين المسلمين واليهود، كما أشرنا إليه فى مدخل البحث. والمعاهدة التي عقدها النبي صلى الله عليه وسلم مع يهود المدينة لم تكن معاهدة مستقلة بينه وبين اليهود، بل كانت أيضا منسجمة مع الأجواء العامة التي تحكم علاقة المؤمنين مع بعضهم البعض، مما يوحي بأن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يجعل من المجتمع المدني وحدة قائمة، على أساس اعتبار المصير الأمني والحياتي مشتركا بينهم، بحيث نستطيع تقرير الفكرة: إن الاسلام لم يكن ليخطط لأية مشاريع حربية أو عدائية ضد أهل الكتاب، بل كان الواقع –على العكس من ذلك- يوحي بتخطيط مشاريع سلمية طويلة الأمد في إطار التعايش السلمي بين فئات وطوائف مجتمع واحد من انتماءات مختلفة .

ومما لا شك فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأت ليمحو وجود اليهود من المدينة، وإنما اعترف بدينهم، وترك لهم حرية ممارسة شعائرهم، ولم يتعرض أبداً لشعائرهم، بل كان يدعوهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى إنه ورد في أسباب نزول قوله تعالى **"لا إكراه في الدين"** أن بعض المسلمين كان لهم أولاد يدينون بالديانة النصرانية، فأرادوا أن يجبروا أولادهم على ترك النصرانية واعتناق الإسلام، فنهاهم الله في هذه الآية عن ذلك.[52] وبهذا امتدت صورة التعايش الناصعة من الأسرة الكبيرة المتمثلة في المجتمع الإسلامي إلى الأسرة الصغيرة المتمثلة في البيت المسلم بين والد مسلم من الأنصار وبين أولاده النصارى، لم يستطع الوالد المتحمس لإسلام أولاده إلا إتباع ما قضى به دينه من عدم المساس بحرية اعتقاد أولاده وبالصلة الطبيعية بين أفراد الأسرة.

وعندما حارب النبي صلى الله عليه وسلم اليهود لم يحاربهم بسبب الاختلاف معهم في الدين، وإنما كان سبب الحرب معهم هو نقضهم للمعاهدات التي كانت بينهم وبين المسلمين، إضافة إلى سعيهم الدائم لتأليب العرب والمشركين ضد النبي والإسلام، فالحرب كانت دفاعية وقائية بالدرجة الأولى. ولما توسعت رقعة الدولة الإسلامية زمن النبي صلى الله عليه وسلم كان هناك مجموعة كبيرة من القبائل المسيحية العربية وبخاصة في نجران، فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن أقلم معهم المعاهدات التي تؤمن لهم حرية المعتقد، وممارسة الشعائر، وصون أماكن العبادة، إضافة إلى ضمان حرية الفكر والتعلم، فلقد جاء في معاهدة النبي لأهل نجران: "ولا يغير أسقف من

---

49 الكافرون: 6./109

50 البقرة: 256/2.

51 يونس: 99/10.

52 إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تفسير القران العظيم، بيروت 1401، 312/1.

أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته وليس عليه دنية"[53] وكان لهؤلاء ولغيرهم الحرية التامة في التنقل والحركة وممارسة أي نوع من أنواع التجارة والنشاطات الاجتماعية، فهذه هي الأسس التي قام عليها التعايش بين المسلمين الأوائل مع غيرهم ممن لايدينون بدينهم.

ولعل من أروع الأمثلة على هذا التسامح الديني الرفيع، رغم أنه لم يكن هناك عقد أو معاهدة، هو سماح النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لوفد نصارى نجران المؤلف من حوالي ستين شخصاً بدخول مسجده الشريف، وجلوسهم فيه فترة طويلة، وعندما حان وقت صلاتهم قاموا متوجهين إلى المشرق ليصلوا صلاتهم، فقام المسلمون لمنعهم عن ذلك، إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهاهم عن ذلك وتركهم يصلون في طمأنينة.[54]

وإن ما حدث في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم - قد تكرر في كنيسة يوحنا الكبرى في دمشق، التي أصبحت فيما بعد الجامع الأموي الكبير، فقد رضي المسيحيون حين الفتح أن يأخذ المسلمون نصفها، ورضي المسلمون أن يصلوا فيها صلاتهم، فكان يرى في وقت واحد أبناء الديانتين الإسلامية والمسيحية يصلون متجاورين، هؤلاء يتوجهون إلى مكة ، وأولئك يتوجهون إلى الشرق[55].

التاريخ هو خير شاهد على التسامح الديني في الإسلام، يقول توماس أرنولد: "إن سياسة التسامح الديني التي سارت عليها الحكومة الإسلامية نحو رعاياها المسيحيين في اسبانيا وحرية الاختلاط بين المتدينين قد أدت إلى شيء من التجانس والتماثل بين الجماعتين. وقد كثر التصاهر بينهم، هذا إلى أن كثيرين من المسيحيين قد تسموا بأسماء عربية و قلدوا جيرانهم المسلمين في إقامة بعض النظم الدينية فاختفت كثير منهم"[56].

لم يتغير وضع التعايش السلمي بين مواطني الدولة الإسلامية حتى في الأيام التي اشتدت فيها عداوة الدول الغربية على الخلافة الإسلامية، لأن العهد الذي بين المواطنين المسلمين والحكومة الإسلامية أقوى وأرفع من أن يتأثر بأمور خارجية عنه. وخير شاهد على هذا أن زعيما نصرانيا يقال له فارس الخوري وقف في جامع بني أمية في الشام عام 1920 وقال مخاطبا للجموع المحتشدة أن فرنسا تتنزع لبقائها في الشام بحماية النصارى و أنا نائب النصارى أطالب الحماية منكم أيها المسلمون وأرفضها من فرنسا"[57].

إذا كان التاريخ خير شاهد بقدرة الإسلام على خلق جو التعايش البناء بين مواطنيها المختلفي الديانات فهو بدوره شاهد على عجز الدول غير الإسلامية في هذا الخصوص. وعلى سبيل المثال بعد سقوط الأندلس وسيطرة المسيحيين عليها قامت حملات مكثفة لإنهاء الوجود غير المسيحي، وبالأحرى الكاثوليكي في إسبانية بمحاكمات موهومة تحت مسمى محاكم التفتيش.[58] ولم يكن للسياسة الكريمة التي اتبعها الدول الإسلامية في تاريخها الطويل مثيل لها من غير المسلمين في جميع مراحل التاريخ الإنساني حتى في عصرنا الحاضر، عصر الحضارة والعقلانية والعلم و التنوير كما يعبر عنه، عصر معاهدات ومحاكم دولية للدفاع عن حقوق الإنسان، عصر الأمم المتحدة والدول المتقدمة بنظمها الديمقراطية، عصر الدول المتمدنة التي لا ترى من واجبها الأصلي الدفاع عن حقوق المسلمين.

وقد سجل الأستاذ أدمون ربلط شهادة لتفرد الإسلام في هذا، حيث يقول: "للمرة الأولى في التاريخ انطلقت دولة وهي دينية في مبدئها ودينية في سبب وجودها ودينية في هدفها، ألا وهو نشر الإسلام عن طريق الجهاد بالأشكال المختلفة من عسكرية و تبشيرية إلى الإقرار في الوقت ذاته بأن من حق الشعوب الخاضعة لسلطانها أن تحافظ على معتقداتها و تقاليدها وطراز حياتها، وذلك في زمن كان يقضي المبدأ السائد بإكراه الرعايا على اعتناق دين ملوكهم، بل وحتى على الانتماء إلى الشكل الخاص الذي يرتدي هذا الدين"[59]

---

53 أبو يوسف، كتاب الخراج، القاهرة 1977، ص. 78.

54 إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، السيرة النبوية' (تحقيق: مصطفي عبد الواحد) بيروت 1981، 4/106-108.

55 مصطفي السباعي، من روائع حضارتنا، القاهرة: دار السلام، ص. 84 -87.

56 سير توماس ارنولد، الدعوة إلى الإسلام (تعريب د. حسن إبراهيم حسن و د. عبد المجيد عابدين)، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، 1970م، ص. 159-160.

57 سورحمن هدايت ، التعايش السلمي بين المسلمين و غيرهم داخل دولة واحدة، القاهرة: دار السلام 1421هـ / 2001م ص. 377.

58 ولمعلومات أوسع عما ارتكبه المسيحيون المتطرفون ضد من لا يدين بدينهم، لا سيما المسلمين منهم، خلال مأساة الأندلس والحروب الصليبية وما شابهه من الحوادث التاريخية المسجلة، ارجع: بسام، الحوار الإسلامي المسيحي ، ص. 60-67.

59 سورحمن، التعايش لسلمي، ص. 145-146.

يجب أن نؤكد هنا أن حرية التدين أو التسامح الديني ليس معناه بالطبع اتخاذ الموقف المتأرجح من الأديان أو القول بأن الكل سواء. فمثل هذا القول لا يقوله مسلم إلا عن جهل أو انحراف في التأويل أو انجرار وراء تيار ساذج. ولا يجوز أن يفهم هذا التسامح الإنساني الإسلامي على أنه انفلات، أو استعداد للذوبان في أي كيان من الكيانات التي لا تتفق مع جوهر هذا الدين، فهذا التسامح لا يستهدف الغاء الفوارق والاختلافات، بل ينطلق من اعتراف صادق بالخصوصيات العقائدية والحضارية والثقافية، إلا أن الإسلام لا يريد لهذه الخصوصيات أن تمنع التعارف والتعاون بين الأمم والشعوب هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الإسلام يؤكد على إعلاء الرابطة الدينية على كل رابطة سواها، سواء أكانت رابطة نسبية أم إقليمية أم عنصرية أم طبقية، فالمسلم أخو المسلم، والمسلم أقرب إلى المسلم من أي كافر بدينه، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، وهذا ليس في الإسلام وحده، بل هي طبيعة كل دين، وكل عقيدة.[60]

ولكن الرابطة الدينية هذه لا تنفي روابط شتى تشكل قاعدة للحياة المشتركة بين المسلمين وبين غيرهم من أهل الأديان السماوية .يقول الدكتور يوسف القرضاوي، إن هناك ألوانا من الأخوة يعترف بها الإسلام غير الأخوة الدينية، فهناك الأخوة الوطنية، والأخوة القومية، والأخوة الإنسانية[61].

وعلى ذلك فإن ملامح مفهوم التسامح الانساني في الإسلام يتبلور من خلال الأسس الآتية:

1 - رسوخ الإيمان و قوة الاقتناع بأن الإسلام وحده هو الدين الحق، كما قال الله تعالى: **"إن الدين عند الله الإسلام"**[62]، و **"فماذا بعد الحق إلا الضلال"**[63]. بهذا المنطق والاعتقاد وبحب الخير لجميع الناس يتقدم الإسلام يعرض دعوته أمام الناس دون فرضها على احد.

2 – رعاية شعور غير المسلمين وخاطرهم بعدم إيذائهم بالقول أو بالفعل. فمن المنهي عنه سب معتقداتهم أو الاستهزاء بما يدينون به سدا للذريعة، كذلك التضييق عليهم عند ممارسة دينهم.

3 – تمكين غير المسلمين من ممارسة دينهم ومن توفيرهم الوسائل اللازمة وإعطائهم الحرية الكافية في الدين مع مراعاة النظام العام والشعور العام، ولهم كذلك أن يستمتعوا بكل ما لا يعتقدون حرمته في دينهم وإن كان محرما في الإسلام كلخنزير والخمر ونكاح المحارم.[64]

4 –تمكينهم من تعليم دينهم على أتباعهم وعرضه على أبنائهم.

5 - بموجب الحرية الدينية تلتزم الدولة المسلمة بعدم التدخل في شؤون المواطنين غير المسلمين الدينية، و هذا يعني استقلاليتهم في تدبير شؤونهم الدينية في إطار النظام العام للدولة.

ب - قداسة المعابد والأماكن المقدسة

وموضوع حماية المعابد والأماكن المقدسة يمكن تناوله في إطار الحرية الدينية. والمعابد وأماكن العبادة مقدسة في نظر القرآن، لا يجوز المساس بقدسيته بل يجب حمايتها. فالمسلمون مطالبون بحماية جميع أفراد وفئات المجتمع الإسلامي من المسلمين وغير المسلمين من الاعتداء الخارجي، فيجب حماية كل الأماكن المقدسة والمعابد من أي اعتداء أو ظلم خارجيا كان أو داخليا[65]. ونرى أن قول الله تعالى: **"ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً"**[66] يفرض على المسلم هذا الواجب

---

[60] د .يوسف ، فقه الدولة في الإسلام : مكانتها، معالمها، طبيعتها، موقفها من الديمقراطية والتعددية والمرأة وغير المسلمين، ، دار الشروق، القاهرة 1997، ص. 197 .

[61] القرضاوي، نفس المصدر، ص. 195.

[62] آل عمران: 19/3.

[63] يونس: 32/10.

[64] و للتفاصيل انظر: الحوار الاسلامي المسيحي ليسام ص. 43.

[65] أبو عبد الله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة: دار الشعب، 70/12.

[66] الحج:40/22.

نحو جميع المعابد والأماكن المقدسة على حد سواء بغض النظر عن جنس وملة مالكيها. فالصوامع والبيع والصلوات تمثل أماكن العبادة لأهل الكتاب من اليهود والنصارى والصابئين وأما المساجد فهي معابد المسلمين[67].

و نرى في عهود المسلمين مع غيرهم ما يؤكد حرمة وقدسية الأماكن المخصصة للعبادة، ولقد جاء في معاهدة الخليفة الفاروق مع أهل القدس النصارى: "هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها؛ أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار منهم أحد"[68].

وكان الوليد بن عبد الملك قد أخذ كنيسة يوحنا من النصارى وأدخلها في المسجد بدمشق. فلما استخلف عمر بن عبد العزيز شكا النصارى إليه ما فعل الوليد بهم في كنيستهم فكتب إلى عامله برد ما زاده في المسجد عليهم لولا أنهم تراضوا مع الوالي على أساس أن يعوضوا بما يرضيهم.[69]

ويقول سير توماس أرنولد المؤرخ الغربي الشهير: إننا نقرأ أن أحد قواد المسلمين في عهد الخليفة المعتصم (218-227ه/833-842م) أمر بجلد إمام ومؤذن لأنهما اشتركا في هدم أحد معابد المجوس في بلاد الصقد واستخدما حجارته في بناء مسجد مكانه[70].

هكذا لم يسمح في جميع الفتوحات الإسلامية بهدم معبد من المعابد أو كنيسة من الكنائس بل أكثر من ذلك وتمكينا لهم من ممارسة طقوسهم الدينية سمح الرسول الكريم، كما سبق، لوفد نجران النصارى بأداء العبادة على طريقتهم في جانب من المسجد النبوي، كما أن ما نرى اليوم من انتشار أماكن العبادة: الكنائس والمعابد والأديرة في كل مكان من بقاع العالم الإسلامي أعظم الشواهد الواقعية علي احترام المعابد التي يذكر فيها اسم الله، فلوأن المسلمين كانوا قد تعاملوا مع الذين يدينون بغير دينهم، تعامل اليهود والنصارى نحوهم ومساجدهم لما شوهد اليوم برج كنيسة واحد ولما سمع صوت ناقوس.

ج - الحريات الأساسية الأخرى

أما بقية الحريات الأخرى، فعلى رأسها حرية الفكر والتعلم. وليس في القرآن ولا في الأحكام الشرعية ما يمنع غير المسلمين من حرية الفكر والتعلم، فلهم تعليم أبنائهم وتنشئتهم وفق مبادئ وتعاليم دينهم وكذلك إنشاء المدارس الخاصة بهم. وكان غير المسلمين مع المسلمين في ميدان الحياة العلمية على السواء تماماً، وأبلغ دليل على ذلك كثرة الإنتاج العلمي الذي ظهر على أيدي غير المسلمين في شتى المجالات العلمية، واشتهرت أسماء علماء من غير المسلمين كانوا يعيشون في المجتمعات الإسلامية. ولقد سجل التاريخ هذه الحرية للفكر والتعليم في صفحاته، وذكر مجموعات الطلبة من خارج البلدان الإسلامية تفد إلى المعاهد التعليمية في قرطبة وبغداد والقاهرة.[71]

وماعدا ذلك، فهناك حرية التنقل والسفر وحرية العمل والكسب وتولي الوظائف الحكومية في الدولة الإسلامية[72] ولا يستثنى من هذا الا ما كان منها يحمل الصفة الإسلامية الدينية البحتة كالإمامة وقيادة الجيش والقضاء وغيرها[73].

وهناك حريات اجتماعية أخرى كاحتفال الأعياد والمهرجانات والزيارات وحق الصلة بينهم وبين المسلمين، فلهم إقامة أعيادهم والخروج بصلبانهم و شعاراتهم و ضرب الناقوس على أن يراعوا الشعور العام. فقد كان النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم يعود مرضى غير المسلمين ويزور جيرانه منهم ويحسن إلى محتاجيهم ويدعوهم إلى الإسلام بكل رفق ولين. ولما جاء وفد نصارى الحبشة أنزلهم في

---

67 ابن جرير الطبري، جامع البيان، 178/17؛ فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، 36/23.
68 أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، القاهرة 1939/1357، 449/2.
69 أحمد بن يحيي بن جابر البلاذرى، فتوح البلدان،(تحقيق: رضوان محمد رضوان)، بيروت 1403، 131-132/1.
70 انظر إلى كتابه الدعوة إلى الإسلام، ص. 239.
71 انظر: بسام، الحوار الإسلامي المسيحي، ص. 49؛ أليكسي جورافسكي، الاسلام والمسيحية، ص. 45-الخ
72 وللأمثلة انظر كتاب الحوار اللإسلامي المسيحي لبسام، ص. 52.
73 أبي الحسن علي بن محمد البغدادي الماوردي، الأحكام السلطانية ، بيروت 1985/1405، ص. 28، 33-34.

المسجد وقام بنفسه على ضيافتهم وخدمتهم. وكان مما قال يومئذ: "إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإني أحب أن أكافئهم"[74]

و في نظر الإسلام هذه الحقوق والحريات لكل الأطراف في المجتمع مَصونة ومَرعية لا تُنتهك ولا يُساء إليها ولا يُعتدى عليها، تطبيقا لقوله تعالى : **"ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين"**.[75]

II. مبدأ العدالة

والمبدأ الثاني الذي أشاد به القرآن في آيات كثيرة[76] لتثبيت الحياة الاجتماعية علي أسس سليمة هو العدالة. والعدالة تعني الاستقامة والاعتدال[77]. وبالعدالة قامت السموات والأرض، وبها تقوم الحياة الإنسانية. ومن هنا كان العدل هو المبدأ الأساسي في شريعة كل الأنبياء والمرسلين. و في محيط الوحدة الإنسانية لا بد وأن يكون العدل شعارا يرفع، ولا يسمح للفروق الشخصية أن تسبب فيه انحرافا وسلبية. ومن ضرورات التعايش السلمي والتعاون المتبادل إتاحة الفرصة والإمكانية ليستمتع بمبدأ العدل، القوى والضعيف والغنى والفقير والقريب والبعيد والمسلم وغير المسلم على حد سواء.

والعدالة هي الميزان المستقيم الذي يحدد العلاقات بين الناس في الحرب والسلم وهى القسطاس المستقيم الذي به توزع الحقوق و به تحمى الأعراض وبه ينتظم الوجود الإنساني. وهو لازم لكل أحد وواجب على كل أحد في كل أحد في كل حال[78]، ولذلك أمر به الإسلام في جميع الأحوال والظروف. فالعدالة الإسلامية عدالة مطلقة، فلا بد أن تقام ولو على النفس أو الوالدين أو الأقربين. وهى لازمة حال السلم ومحتمة وقت العداوة والحرب. ولا شك أن من أروع وأفصح توجيهات سمعتها وستسمعها البشرية في فضيلة العدالة، هى قوله تعالى: **"ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى"**.[79]

III. المعاملة بالمثل

المعاملة بالمثل نتيجة مرتبة على مبدأ العدالة في العلاقات البشرية. ومن هنا حث القرآن المسلم على حسن المعاملة مع غيره من بني جنسه، ذلك لأنه هو الذي يتضرر أو ينتفع من نتائج علاقته مع غيره سوئا أو حسنا، كما قال تعالى **"إن أحسنتم أحسنتم لأنفسهم وإن أسأتم فلها"**[80]. وبمقتضى هذا المبدأ أن من حق المسلم أن يعامل من اعتدى عليه بقدر اعتدائه لا أكثر، وبقدر ما يحميه من تكرار الاعتداء عليه. قال تعالى: **"فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم"**[81]. هذا بالنسبة لاستيفاء الحقوق، أما بالنسبة لاستباق الخيرات وتحسين العلاقات فالإسلام لم يقف عند هذا الحد بل دعا المسلم عند إيفاء حقوقه إلى درجة أعلى من مجرد التمسك بمبدأ المعاملة بالمثل إلى التجاوز عن بعضها أو كلها بالعفو والصبر كما في قوله تعالى: **"وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين..."**[82]. وقوله تعالى: **"وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله"**[83]. بل أكثر وأرقى من هذا كله يدعو الإسلام إلى رد الإساءة بالإحسان والفضيلة. و هذا المبدأ الإسلامي يمكن المسلم من تحويل العداوة بينه بين

---

74 اسماعيل بن عمر ابن كثير، البداية ةالنهاية، بيروت، مكتبة المعارف، 78/3. للتفصيل انظر: مصطفي السباعى، من روائع حضارتنا ، ص. 82.

75 البقرة: 190/2. ولاننكر أنه من حين لأخر في التاريخ الاسلامي الطويل قد مورس نوع من التشديد والتضييق على أهل الذمة مثل حظر ركوب الخيول ومنع ثياب فاخرة وفرض الترجل عند لقائه مع مسلم وما شابه ذلك من الأعمال التمييزية والتصغيرية لكنه بقي منحصرا بفترات وجيزة جدا، بحيث لا تمثل ولا تغير الموقف الاسلامي تجاه الأديان الأخرى. انظر: أليكسي جورافسكي، الاسلام والمسيحية، ص. 182، تعليق المترجم رقم 1.

76 انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادتي: "عدل" و "قسط".

77 علي بن محمد الجرجاني، التعريفات (تحقيق: ابرهيم الابياري)، بيروت 1405، ص. 191.

78 انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 6/2.

79 المائدة: 8/5.

80 الإسراء: 7/17.

81 البقرة: 194/2.

82 النحل: 126/16.

83 الشورى:40/42.

غيره إلى الصداقة حيث قرر القرآن هذه الحقيقة: **"ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك و بينه عداوة كأنه ولي حميم..."**[84].

والمسلم يعمل بهذا المبدأ في جميع الحالات وإزاء كل الناس، حالة السلم وحالة اندلاع الحرب إلى المسلم وغير المسلم، إلى الصديق والعدو. ولا يتعارض هذا مع مبدأ العدالة بل يلازمها.

IV. الاحترام المتبادل و التسامح الديني

معنى التسامح أو الاحترام أن نتحمل عقائد وآراء وأعمال غيرنا وإن كانت تخالفنا أو باطلة في نظرنا ولا نطعن فيهم بما يؤلمهم رعاية لعواطفهم وأحاسيسهم ولا نلجأ إلى وسائل الجبر والإكراه لتصريفهم أو منعهم من الإدلاء بآرائهم أو القيام بأعمالهم.[85]

والاحترام المتبادل والتسامح هو من أهم المبادئ التي يقوم عليها التعايش السلمي بين الناس على كل مستوياتهم. وما هذا الاحترام إلا عهد إنساني قطعه الإنسان على نفسه في سره وإعلانه وأمام ربه، وعلى الإنسان أن يَفِي به ليكون متحققاً بإنسانيته منسجماً معها قال تعالى : **"وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً"**[86]. وأهم عهد بعد عهد الإنسان مع الله ليعبده هو عهد الإنسان مع الإنسان ليحترمه، وما سوى ذلك من العهود توابع لهذين العهدين. والحياة المشتركة بين أي أمم لا تتأتى إلا من خلال التعايش السلمي والتعاون المثمر البناء لصالح الجميع والدفاع سويا عن الوطن ضد أي عدوان خارجي.

والتسامح والاحترام المتبادل أمر لا بد منه لإبقاء جو السلام وحسن التفاهم بين أفراد أو جماعات مختلفة العقائد متباينة الآراء والمبادئ. وما أروع ما قال الله تعالى تقريرا لهذا المبدأ: **"ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم"**.[87]

من ناحية تاريخية كان المسلمون يتخذون موقف التضامن والتعاطف والتأييد تجاه الروم المسيحيين لأنهم من أهل الكتاب، وذلك في صراعهم مع الفرس المجوس. والآية الكريمة لا تكتفي بالتأييد السياسي فحسب بل تذهب إلى أبعد من ذلك إذ تفترض أن يفرح المسلمون بانتصار الروم[88]. وكذلك يقول الخليفة الرابع الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه مخاطباً واليه مالك بن الحرث الأشتر على مصر في عهده الشهير: «وأشعِرْ قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق»[89]

و التسامح الإنساني في الوقت نفسه يتيح للبشرية أن تجرى أشكال التعامل بكل حيوية وأن تجرى الحوارات المنضبطة، والحق لن يخسر شيئا بسبب التسامح الحقيقي، غير انه لا يقبل في استمرار العلاقات السلمية فرض أي مبادئ دينية محضة من طرف على الأخر كشرط مسبق مثل ما فعل الهندوس حيث طالب زعماء الهندوس المتطرفون مواطنيهم المسلمين في الهند بالتوقف عن تناول لحوم البقر كشرط مسبق للتعايش السلمي مع الأغلبية الهندوسية في الهند[90] وقد عبر عن هذا الشرط التعسفي الغريب نيابة عن الزعماء المتطرفين جيريراج كيشور رئيس المجلس الهندوسي العالمي الذي يقود حملة لبناء معبد مزعوم في موقع مسجد أيوديا بابرى في ولاية غوجرات شمال الهند الذي دمره الهندوس عام 1992.

V. التعاون الايجابي في المصالح المشتركة

الإنسان مخلوق اجتماعي، لا يقدر على العيش بمفرده دون أن يتعامل مع أخيه في الإنسانية، تتم خلاله الاستفادة والإفادة. ومن هنا فان التعاون شيء أساسي لحياة الناس.

---

[84] فصلت: 34/41.

[85] أبو الأعلى المودودى، الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة (تعريب: خليل احمد الحامدي)، دار السعودية للنشر و التوزيع، ص. 39.

[86] سبأ: 17/34.

[87] الأنعام: 108/6.

[88] الروم: 4/30-5. انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، 427/3.

[89] نهج البلاغة (تحقيق صبحي الصالح)، قم: دار الهجرة، كتاب رقم 53 (كتابه إلى مالك الأشتر) ص 427.

[90] انظر: http://islamtoday.net/nawafeth/artshow-12-16419.htm

وإذا أردنا أن نتحدث -من باب التقنين والتقعيد في الأسلوب الذي باشر به الإسلام حقيقة التعايش مع الآخرين؛ نرى أن هذا التعايش ينطلق من قول الله تعالى: **"لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين"**[91]. والآية تشمل جميع أصناف الملل والأديان[92] وتوجه المسلمين أن يبروا أتباعها ويصلوهم ويقسطوا إليهم، لأن الله يحب المنصفين الذين ينصفون الناس ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم، ويبرون من برهم، ويحسنون إلى من أحسن إليهم. فالآية واضحة في أننا نحن المسلمين عندما لا يريد الآخرون من أتباع الديانات الأخرى أن ينضموا إلى مدرسة الإسلام فلنا الحرية التامة في صلتهم و العدل معهم ومعاملتهم المعاملة الطيبة بناء على مبدأ الاحترام المتبادل والعلاقات والمصالح المشتركة. هي دعوة الأنا والآخر إلى التعاون من أجل تحقيق تعايش مشترك آمن. ومن هنا ما سمعنا في المدن الاسلامية أحياء خاصة باليهود أوالنصارى كما كان يوجد في أوروبة أحياء مخصصة لليهود والتي تدعي "الغيتو". بل كانت بيوت المسلمين متجاورة ومتلاصقة ومتداخلة مع غيرهم من انتماءات مختلفة.

و لم يمنع القرآن المسلم من البر والإحسان إلى الوالدين المشركين بل حثهم على صلتهما وعونهما في الدنيا، حتى وإن حاولا إجباره على الشرك، حيث قال تعالى: **"ووصينا الإنسان بوالديه...وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما و صاحبهما في الدنيا معروفا"**.[93]

ومن ناحية أخرى حدد القرآن الأساس والإطار الذي يتحقق هذا التعاون عليه وهو البر والتقوى، ورفض أي شكل للتعاون الذي ينبني على الإثم والعدوان[94]. والرسول صلى الله عليه وسلم قد قدم أسوة يقتدى بها للتعاون الأممي، و ذلك عندما عقد مع اليهود وعناصر مشركى المدينة عهدا كان أساسه التعاون بينهم و بين المسلمين في دفع العدوان وإقامة الحق أو كما يسمى في عرف العصر الحاضر "التعايش السلمي" ولكن اليهود جريا على عادتهم لم يلتزموا بتعهداتهم نحو المسلمين بل ما لبثوا أن نقضوا عهدهم.

VI. الوفاء بالعهد

والوفاء بالعهد يشمل كل عهود معروفة ومتعارفة وهو ضمان لبقاء عنصر الثقة في التعاون بين الناس، وعند فقدانها يتهدم المجتمع وتنعدم الإنسانية. ولذلك يشدد الإسلام في هذا الموضوع بشكل لا يقبل التخفيف؛ لأنه قضية الثقة التي تضمن استمرار التعامل البناء والاحترام المتبادل. وقد أمر الله تعالى بالوفاء بالعهد أمرًا صريحًا في عدد من آيات القرآن الكريم[95]. ولعل من أجمعها وأوسعها معنى قوله تعالى: **"وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً"**[96]. وجاء فى قوله تعالى أيضا إن الموفين بعهودهم هم الذين استجابوا لربهم، ووعدهم الحسنى، ووصفهم الله تعالى بأنهم أولى الألباب، كما وعدهم الثواب والأجر العظيم[97]، والحب منه عز وجل[98]. هذا من جهة، ومن جهة اخرى فقد بيَّن سبحانه وتعالى أن نقض العهد من المنكرات التي لا تليق بالمؤمنين الذين يجعلون الله كفيلا عليهم عند التعاهد[99]، ولعن الذين ينقضون العهد من بعد ميثاقه.[100]

واعلن الإسلام أن الغدر بالعهد من سمات المنافقين[101]، بينما الوفاء به من شيم خيار المؤمنين وعلامات الصدق والتقوى.[102] وإن مجرد الشك في وفاء الطرف المقابل بالعهد لا يكون مبررا للخروج من العهد، إلا إذا ظهر القرائن المؤكدة على خيانة وغدر الطرف الأخر بالعهد فحينذاك للمسلمين نبذه على أن يبلغوهم ليكون الجميع على علم بفسخ العهد على حد سواء. وقال تعالى: **"وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ**

---

91 الممتحنة: 8/60.
92 الطبري، جامع البيان ، 66/28.
93 لقمان: 14/31-15.
94 المائدة: 2/5.
95 انظر: المعجم المفهرس مادة: "عهد".
96 الإسراء: 34/17.
97 الفتح: 10/48.
98 آل عمران: 76/2.
99 النحل 91/16.
100 الرعد: 25/13.
101 البخاري، "كتاب الإيمان"، 24.
102 البقرة: 177/2.

إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين"[103]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلَّنَّ عقدة، ولا يشدَّها حتى ينقضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء"[104]

VII. الحماية

تشتمل الحماية جميع مقومات الحياة، و لكل مواطن الحماية اللازمة على نفسه و ماله وعرضه و شرفه وأهله، سواء من الاعتداء الخارجي أو من الظلم الداخلي. الحماية على النفس بمثابة حق الحياة، وحياة الإنسان مقدسة لا يجوز المساس بها بغير حق، حيث قال الله تعالى: "**من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا**".[105] وإذا كان قتل المسلم بغير الحق موجبا للخلود في جهنم فقتل المواطن غير المسلم بغير حق يحرم من دخول الجنة. قال النبي صلى الله عليه وسلم :"**من قتل معاهدا في غير ذنبه حرم الله عليه الجنة**"[106] و قال أيضا: "**ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة**"[107].

وترتب على وجوب الحماية على النفس وجوبها على الأموال فان حرمة المال من حرمة النفس كما قال على بن ابى طالب رضي الله عنه: "إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا و دماؤهم كدمائنا".[108]

و كان العلماء على مدار التاريخ يوصون الأمراء والخلفاء والحكام بحسن معاملة غير المسلمين وتفقد أحوالهم، فهذا القاضي أبو يوسف يكتب إلى الخليفة هارون الرشيد يوصيه بتفقد أحوال أهل الذمة ورعايتهم فيقول: وقد ينبغي يا أمير المؤمنين أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم والتقدم إليهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم[109].

ونرى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأهل نجران النصارى حماية واضحة للأموال والممتلكات، فقد جاء فيما نصه "ولنجران وحاشيتها جوار الله تعالى وذمة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أموالهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير"[110].

وانطلاقا من مثل هذه النصوص الدينية قد قال فقهاء الشريعة الإسلامية: إن من كان في ذمتنا وجاء أعداء الوطن يريدون الاعتداء عليهم في نفس أو مال أو أي نوع من الاعتداء وجب علينا أن نخرج لقتال هذا المعتدي وبكل الإمكانيات صونا لمن هو في عهد وذمة الله وعهد وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم.[111]

وكذلك يكفل المجتمع الإسلامي غير المسلمين -كما يكفل المسلمين- عند عجزهم عن العمل والكسب، بمثل ما يسمى اليوم الضمان الاجتماعي وقد كتب الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز إلى أحد ولاته كتاباً جاء فيه:

أما بعد: فانظر أهل الذمة فارفق بهم وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فأنفق عليهم"[112].

و الخلاصة

---

103 الأنفال: 58/8.
104 احمد بن حنبل، المسند، 111/4؛ أبو داود، "الجهاد" 152؛ الترمذي، "السير" 26.
105 المائدة:32/5.
106 أحمد بن حنبل، المسند، 7/5.
107 أبو داود، "كتاب الإمارة"، 33.
108 عبد الله بن يوسف الزيلعي، نصب الراية (تحقيق: محمد يوسف البنوري)، مصر: دار الحديث 1357، 368/4؛ أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن قدامة المقدسي، المغنى، القاهرة 1367هـ، 535/8.
109 أبو يوسف، الخراج، ص. 135.
110 أبو يوسف، الخراج، ص. 78.
111 شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، الفروق، بيروت: دار المعرفة الفروق، 14/3.
112 ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت، 1957/1376، 380/5.

إن مدلول مصطلح التعايش (COEXISTENCE) الذي ابتدأ رواجه مع ظهور الصراع بين الكتلتين الشرقية والغربية اللتين كانتا تقسمان العالم إلى معسكرين متناحرين قبل سقوط سور برلين وانهيار الاتحاد السوفياتي، ينطوى على جملة من المعاني محملة بمفاهيم تتضارب فيما بينها، ولكن يمكن تصنيُفها إلى مستويات ثلاثة : سياسي، اقتصادي و ديني.

وعلى المستوى السياسي يحمل مفهوم التعايش معنى الحد من الصراع، أو ترويض الخلاف العقائدي بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي في المرحلة السابقة، أو العمل على احتوائه، أو التحكُّم في إدارة هذا الصراع بما يفتح قنوات للاتصال، وللتعامل الذي تقتضيه ضرورات الحياة المدنية والعسكرية.

وعلى المستوى الاقتصادي يرمز إلى علاقات التعاون بين الحكومات والشعوب فيما له صلة بالمسائل القانونية والاقتصادية والتجارية.

وعلى المستوى الدينى الثقافى الحضاري، وهو الأحدث، يشمل تحديدًا معنى التعايش الديني، أو التعايش الحضاري . والمراد به أن تلتقي إرادُة أهل الأديان السماوية والحضارات المختلفة في العمل من أجل أن يسود الأمن والسلام العالمي، وحتى تعيش الإنسانية في جو من الإخاء والتعاون على ما فيه الخير الذي يعم بني البشر جميعًا، من دون استثناء.

لقد وضح لنا من تأملنا في هذه الدلالات جميعًا، أن التعايش الديني، أو بعبارة أدق، التعايش السلمي بين

الأديان، يستند إلى أسس أربعة، هي :

أولا، الإرادة الحرة المشتركة، بحيث تكون الرغبة في التعايش نابعة من الذات، وليست مفروضّة تحت أى ضغوط، أو مرهونة بأى شروط، مسبقة.

ثانيا ، التفاهم حول الأهداف والغايات، حتى لا يكون التعايش فارغًا من أي مدلول عملي، أو لا يحّقق الفائدة للطرفين، بحيث يكون القصد الرئيسي من التعايش، هو خدمة الأهداف الإنسانية السامية وتحقيق المصالح البشرية العليا، وفي مقدمتها استتباب الأمن والسلم في الأرض، والحيلولة دون قيام أسباب الحروب والنزاعات، وردع العدوان والظلم والاضطهاد الذي يلحق بالأفراد والجماعات، واستنكار كلِّ السياسات والممارسات التي ُتهضم فيها حقوق الشعوب، على أي مستوى من المستويات، ومحاربة العنصرية والعرقية واستعلاء جنس على جنس، تحت أية دعوى.

ثالثا ، التعاون على العمل المشترك من أجل تحقيق الأهداف المتفق عليها، ووفقًا لخطط التنفيذ التي يضعها الطرفان الراغبان في التعايش.

رابعا، صيانة هذا التعايش بسياج من الاحترام المتبادل، ومن الثقة المتبادلة أيضًا حتى لا ينحرف التعايش عن الخط المرسوم، لأي سبب من الأسباب، وحتى لا ُتغلَّب مصلحة طرفٍ على مصلحة الطرف الثاني، مهما تكن الدواعي والضغوط، وذلك بأن يتم الاحتكام دائمًا إلى القواسم المشتركة، وإلى القدر المشترك من القيم والمثل والمبادئ التي لا خلاف عليها ولا نزاع حولها، يعزز هذا النزوع الالتزام من الجانبين بما اجتمعت عليه إرادُة المجتمع الدولي، من مبادئ قانونية استوحاها تطور الفكر السياسي الإنساني من قيم الأديان السماوية عبر تراكم المعرفة طوال التاريخ.

ومبادئ دين الاسلام –لاشك- تؤيد هذا الإطار للتعايش السلمى من أجل تحقيق أهداف سامية للبشرية عامة فى أمن وطمأنية. والأسس والمبادئ التي وضعتها المصادر الأولية فى الإسلام في إطار التسامح الديني والتعايش السلمي مع الآخرين تعد صالحة للعمل بها في كل زمان ومكان، فالتاريخ الإسلامي يذكر بوضوح تام كيف كان المسلمون يعيشون مع كافة أتباع الأديان المختلفة سماوية كانت أو أرضية جنباً إلى جنب، وكان الكل يعيش في حرية دينية سامية، ويمارس سائر أشكال الحياة العلمية والاجتماعية والعملية وحتى تولي المناصب العليا في الدولة، والأمثلة التاريخية كثيرة جداً، ربما لا يمكن حصرها، ولا أظن بحال من الأحوال أن البشرية التي تدعي التقدم والترقي وهى تعيش أوائل القرن الحادي والعشرين يمكن لها أن تدعي لنفسها بلوغ مستوى ما

وصل إليه الإسلام من التسامح الدينى والتآخي الإسلامي، والتعايش السلمي بين كافة الأجناس البشرية. ولا شيء في الإسلام اسمه إلغاء الآخر، لأن هذا الآخر وان كان مخالفاً للمسلمين في العقائد والطقوس الدينية والسلوك الاخلاقي، فهو إنسان من حيث أصله وطينته، له كافة الحقوق الإنسانية. فطالما يبدي إرادة العيش مع المسلمين جنباً إلى جنب فعلى الرحب والسعة.

إن الشريعة الإسلامية، تؤكد على أهمية تعزيز السلم في المجتمع البشري وخاصة في العلاقات الخارجية. وتعتبر التعايش السلمي هو القاعدة في العلاقات الدولية أيضا. وهناك العديد من الآيات القرآنية التي تؤكد ذلك المبدأ، بالاضافة الى ما سبق. وكما أن القرأن يرفض الإيمان بالإكراه فالسلام العالمي هو هدفه الأساسى، حيث يمكن خلاله تهيئة الأجواء لإرساء علاقات ودية مع الآخرين، كما قال تعالى: "**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها، وتوكل على الله إنه هو السمع العليم**"[113]، "**يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين**"[114]. إذن يمكن القول بأن الإسلام إن لم يكن يدعو إلى ترسيخ السلم والأمن العالمي الذي اعتبر أحد المبادئ الأساسية في ميثاق الأمم المتحدة فإنه لم يعترض ولايعترض عليه اطلاقا.

وعالمية الإسلام تجعل الثقافة والحضارة الإسلاميتين منفتحتين على حضارات الأمم، ومتجاوبتين مع ثقافات الشعوب، مؤثرتين ومتأثرتين . إن الإسلام ينكر المركزية الحضارية بمعنى قسر العالم على نمط حضاري واحد، و مع ذلك لا يريد للحضارات المتعددة أن تستبدل التعصب بالمركزية الحضارية القسرية، إنما يريد لهذه الحضارات المتعددة أن تتفاعل وتتساند في كل ما هو مشترك إنساني عام.

وإذا كان الإسلام دينًا عالميًا، فإنه في جوهر رسالته وحقيقة مبادئه، لا يعني أيضًا المركزية الدينية بمعنى فرض دين واحد على العالم كله . إن التعايش فيه ينطلق من قاعدة عقائدية، وهو ذو جذور إيمانية،ولذلك فإن المسلم يعتقد أن الهدي الإلهي جاء عبر سلسلة طويلة من الرسالات والنبوات آخر حلقاتها اليهودية، فالمسيحية، فالإسلام، فمن الطبيعي إذن أن تكون هذه الأديان الثلاثة أقرب إلى بعضها بعضًا منها إلى سائر الأديان، ومن هنا فإن القرآن يسمى المسيحيين واليهود أهل الكتاب. لأن الله سبحانه وتعالى أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى عليهما السلام، قبل أن يتلقى محمد عليه الصلاة والسلام، الرسالة في اكتمالها مصدقة لما بين يديها،

ومصححة ومفصلة أمور الشريعة والقانون بجانب العبادات والأخلاق.

و أخيرا، فإن مقومات التعايش السلمي في الإسلام على المستويات كلها محليا وإقليميا ودوليا يمكن تلخيصها في:

1. أن الإنسان مخلوق كرمه الله على سائر المخلوقات وجعل له حقوقا مرعية اتفقت عليها الشرائع السماوية، وفي مقدمتها حرية التدين فإن تنظيم الحياة السعيدة لا يتم بمعزل عن الدين الذي يرسم للبشرية سبل الهداية والرشاد. ومن هنا يرى أن انتهاك هذه الحقوق يشكل خطرا عالميا ويهدد السلام العالمي والتعايش السلمي.

2. وأن العدل هو قاعدة السلام والتعايش السلمي بين الناس المختلفي الديانات، وأن الظلم بكافة صوره وأشكاله سبب أساسي للعداوات والحروب والإرهاب بجميع صوره وأشكاله.

3. وأنه لابد من اجتناب كل ما من شأنه الإساءة لشعائر ومقدسات الأديان بما فيها الوثنية والعمل على غرس الاحترام المتبادل في هذا الشأن، فإن اغتصاب الحقوق والاعتداء على المقدسات والممتلكات هو أخطر ما يهدد السلام العالمي والتعايش السلمي ويجر العالم إلى ويلات الحروب وما يتبعها من مآس ودمار.

113 الأنفال: 61/8.
114 البقرة: 208/2.

4. وأن احترام العهود والمواثيق واجب إنساني و التزام ضروري ضمانا للأمن القومى والدولى وتحقيقا للتعايش السلمي، والتصرفات الفردية لا تحسب على الأسلام، كما لا يجوز اتهام أو تجريم دين من الأديان أو أمة من الأمم لتجاوزات بعض منتسبيها إليها.

5. وأنه لا يجوز اتخاذ الدين ستارا أو مبررا لسلب الممتلكات أو الاعتداء على الأرواح والمقدسات. وأن حق المقاومة مكفول في جميع الشرائع لكل مظلوم معتدى عليه، بل إن الشرائع السماوية والعلمانية الحديثة تعتبر الدفاع عن النفس ومقاومة المحتل والمغتصب واجبا مقدسا.

وأخيرا هناك مجال لعمل مشترك ليقوم به الأديان من أجل سلامة البشرية ولتحقيق السلام والتعايش السلمي على المستوى العالمي والمحلي. إن العالم اليوم يعيش في أزمات ومشاكل على أصعدة ومستويات كثيرة فيجب أن يتوجه الجميع وبخاصة أتباع الأديان السماوية نحو التفكير والعمل الجاد المشترك لحل تلك الأزمات ومن أهمها:

- مواجهة خطر المجاعة في العالم ومحاربة الفقر والجهل والتخلف.

- مواجهة الأخطار الطبيعية ومساعدة المنكوبين والمتضررين من الزلازل والأعاصير وغيرها.

- مواجهة الجريمة بكل أصنافها والفتن الطائفية وتوقيف الإبادات العرقية والدينية التي يمارسها البعض ضد البعض.

- مواجهة خطر الفساد الأخلاقي والسلوكي الذي يهدد الكيان الإنساني بدءاً بالفرد ومروراً بالأسرة وانتهاء بالمجتمعات.

- مواجهة أخطار الأوبئة والأمراض القاتلة و حماية البيئة من التلوث بكل أنواعه.

- حث الدول التي تمتلك قدرات اقتصادية وتقنية أن توجه قدراتها نحو خدمة المجتمع الإنساني ومحاولة إيقاف سباقات التسلح في العالم.

- مواجهة خطر محاولة بعض دول العالم الكبرى السيطرة بالقوة العسكرية والاقتصادية على مقدرات الشعوب لاستغلالها.

- العمل بكل الطاقات لمنع تصنيع وانتشار الأسلحة النووية، والأسلحة الكيميائية والبيولوجية.

- العمل المشترك لحث الحكومات على وضع تشريعات دولية تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة، لضبط الأبحاث العلمية التي تتعلق بتغيير الصفات الوراثية للخلية الحية، والاستنساخ، وكذلك إنتاج الأغذية النباتية والحيوانية المهجنة والمدعومة بالهرمونات الخطيرة، ووضع القواعد الضامنة لمستقبل بشري خال من الأخطار.

***

Özet:

Kur'ân'a Göre Müslümanlarla Gayrimüslimlerin Barış İçinde Birarada Yaşama Esasları

Dinler arası diyalog ya da barış içinde bir arada yaşama, çağımızın en çok tartışılan ve en popüler konularındandır. Farklı dinler arasında diyalog ya da barış içinde birlikte yaşama, İslam tarihinin hiçbir döneminde sorun teşkil etmemiştir. Çünkü hayatın her alanını düzenleyen İslam dini, İslam Devleti'nde Müslüman'ın gayrimüslimle nasıl hoşgörü içinde yaşayacağının kurallarını da koymuştur.

Medine'de ilk İslam devletinin kurulmasından beri Müslümanlar; Yahudiler, Hıristiyanlar ve Budistler gibi farklı dinleri benimsemiş topluluklarla birlikte ve barış içinde yaşamışlardır. Zira Müslümanlar diğer dinleri hemşehrisinin dini gibi görür ve gerçek hoşgörünün, herhangi bir din mensubun, kendi dini değer ve yargılarına göre yaşamasına izin verilmesi olduğuna inanır. Söz konusu değer ve yargıların İslam bakış açısına göre yanlış olması sorun teşkil etmez.

İslam toplumlarında Müslümanların gayri Müslimlerle ilişkilerini belirleyen temel ilkeler şu şekilde özetlenebilir:

Yüce Kur'ân'a göre bütün insanlar ve ırklar aynı kökten, Yüce Allah'ın insanlığa gönderdiği ilk peygamber Adem(a.s.)'dan gelmektedir. Ayrıca insan diğer varlıklar arasında üstün ve şerefli kılınmıştır. Yüce Allah'ın yeryüzündeki halifesidir; kulluk ve ibadet görevi gereği Allah adına onun emir ve yasaklarını uygulamaktan sorumludur. Fakat bu görevini özgür seçimiyle yapmalıdır. İmtihan hikmetinden dolayı din konusunda ne tür olursa olsun asla baskı ve cebir uygulanmamalıdır.

Bütün bu değerlerin korunması, güvenli ortamların sağlanmasıyla mümkün olur. Bu yüzden Kur'ân insan temel hak ve özgürlüklerinin yanı sıra adalet, misliyle muamele, karşılıklı saygı ve hoşgörü, ahde vefa, fert ve toplum menfaatlerinin korunması ve fakirlik, ırkçılık, her türlü haksızlık vb. gibi konularda ortak hedefler etrafında işbirliği yapılmasına büyük önem verir.

Bu çalışmada Kur'ân'ın dinler arası diyalog ve farklı dinlere mensup insanlar arasında barış içinde bir arada yaşamayı düzenleyen ilkeleri genel hatlarıyla ele alınacaktır.

Anahtar Kelimeler: Hoşgörü, Birarada Yaşama, Kur'ân, Diyalog, İnanç.